

أهلون على الله أن تمسك كعبته
من أن يقتل مؤمن واحد ظالما

الاسلام برىء من أى جماعة تستعمله للوثوب على السلطة أو اغتصاب الحكم .. والاسلام ليس تمردا ولا فكرا انقلابيا .. وإنما الاسلام دعوة وتبليغ وبيان بالمنهج الأمثل للحياة الطيبة وتعريف بالله ووجدانيته وعبادته ، وتعريف بالآخرة والحساب ، ثم بعد ذلك .. ليس بعد البلاغ شىء .. وكل انسان حر يختار ما يشاء بإرادته ..

وإذا كان المسلمون حاربوا الروم والفرس فى الماضى فلتحرير إرادة الشعوب من جبروت الطغاة .. ومحور الاسلام كان دائما تحرير الإرادة وتحرير الاختيار .

لا إله إلا الله .. لا حاكم للوجود إلا الله .. تحرير من كل الأصنام المادية والمعنوية .. وتحرير من الأوهام والمخاوف .. ومن كل ذى جبروت .
والاسلام السياسى هو صناعة رأى عام بهذا المعنى وليس صناعة ثورة تضطهد الناس أو إرهابا يطاردهم .

ولا يوجد حاكم فى الدنيا لايهتم بالرأى العام فهو يستمد قوته من قوة الرأى العام الذى يقف معه .. ومن هنا تكون قوة الدعوة .. وليس من عضلاتها .. فسوف يحسب لها الحاكم ألف حساب لأنها صوت الرأى العام ومشيتته .. والله لم يجعل محمدا عليه الصلاة والسلام متسلطا على الناس ولا جبارا .. وإنما مجرد مبلغ .

« وما على الرسول إلا البلاغ المبين » (١٨ - العنكبوت)

« إن عليك إلا البلاغ » (٤٨ - الشورى)

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٢١ - الغاشية)

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار » (٤٥ - ق)

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » (٢٧٢ - البقرة)
 « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » (٥٦ - القصص)
 « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم » (١٢٨ - آل عمران)

وهذا كلام الله لنبيه الكامل الذى وصفه بأنه على خلق عظيم .
 فماذا يكون قوله للحنثالة الإرهابية التى تخرج على الناس بالمدافع
 الرشاشة لتهديتهم .

لقد كذبوا جميعا ولا علاقة لهم بإسلام ولا بدين أى دين ، إنما هم
 عملاء فى أيد أجنبية تحركهم .. والصحافة التى تصفهم بالإسلاميين
 المتطرفين تشوه الاسلام وتنعتهم بما ليس فيه .. وهى علينا وليست معنا .
 وإنما استمدت الدعوة الاسلامية قوتها من القيم والمثل والأخلاقيات
 التى تدعو إليها .

واستمد النبى عليه الصلاة والسلام قوته من خلقه وطهارته وأمانته
 وصدقه .

بل إن مفهوم المجتمع نفسه ومفهوم الوطن ، ومفهوم القومية فى القرآن
 ثانوى على مفهوم الفرد .

« أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به » (٩٢ - النحل)
 إن الله جعل الأمة أداة لابتلاء الفرد وامتحانه .. لأن أخلاق الفرد لا تظهر
 إلا بما يفعله مع اخوانه وأهله ومجتمعه .. فالمجتمع ليس كائنا حقيقيا
 وإنما هو مجرد وجود اعتبارى ووعاء لظهور شر الفرد وخيره .

ولكن الفرد والذات الفردية هى الحقيقة الوجودية التى من أجلها خلقت
 الدنيا وأقام الله المجتمعات .

والفرد هو الذى يتوجه إليه الخطاب والامتحان والحساب والعقاب .

« ذرني ومن خلقت وحيدا » (١١ - المدثر)

« ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » (٨٠ - مريم)

« وكلهم آتية يوم القيامة فردا » (٩٥ - مريم)

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء
 ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع

بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون» (٩٤ - الأنعام)
ومعنى ذلك أن المجتمع والوطن والقوم ليست كيانات وجودية بذاتها
وإنما هي ضمن ما يترك ، وضمن ما يدع الفرد وراء ظهره حينما يدخل إلى
القبر وحينما يلقي الله تعالى .
والمقصود من المجتمع في الدنيا كان إظهار معادن النفوس وأخلاقها
وسجاياها .

ونقف طويلا أمام مفهوم الأخلاق الإسلامية ، فقد اختلط هذا المفهوم
كثيرا حتى على دعاة لهم مكانتهم .. فقد نسبوا إلى الشيخ محمد عبده أنه
قال عنهم حينما زار أوروبا وعاشر الأجانب ورأى نظامهم وأخلاقهم :
هؤلاء مسلمون بلا إسلام .. ونحن عندنا إسلام بلا مسلمين .

وهكذا نسب إلى الإنجليز والفرنسيين أخلاقا إسلامية لمجرد نظامهم
وانضباطهم ، وهذا فهم خاطيء .. فالنظام والأخلاق عند هؤلاء الناس
مفهوم نفعى تماما كالبقال الذكى والتاجر الذكى الذى اكتشف بفتنته أن
الأمانة تكسب له جميع الصفقات بينما السرقة والغش والنصب لا يضمن
له إلا صفقة واحدة .. فاختار الأمانة لأنها أنفع .

وهم اختاروا الأخلاق لأن لها عائدا ماديا .. فهى أخلاق برجماتية نفعية
لا شىء فيها لوجه الله وليست هى الأخلاق الإسلامية التى أرادها الله
خالصة لوجهه .

ونحن لانقف أمام الحديث النبوى الشريف الذى رواه الرسول عليه
الصلاة والسلام عن المرأة الخاطئة التى وقعت على كلب عطشان يلهث فى
الصحراء فسقته فغفر الله لها وأدخلها الجنة ، ولانفكر لم كان هذا الثواب
العظيم من أجل سقيا كلب .. ولكن السر ليس فى مجرد العمل الصالح ولكن
لأن هذا العمل الصالح لم يتبع به المرأة سمعة ولا أجرا .. فلا أحد فى
الصحراء الخالية كان يرى ما فعلت ولم يكن للكلب صاحب ليكافئها ..
ولكن عملها كان خيرا خالصا .. ولم يكن له شاهد سوى الله .. نحن هنا أمام
أخلاق ربانية (كما يرزق الله المؤمن والكافر لا يبتغى على عطائه أجرا)
ولهذا أثنى الله بعطاء بلا حدود .

يقول المحسنون في القرآن : (إنما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا).

هنا الأخلاق الربانية الإسلامية التي يريد الله خيرا خالصا.
« ألا لله الدين الخالص » (٣- الزمر)

ولا يوجد عند هؤلاء الأوربيين والإنجليز والأمريكان الذين أعجب بهم الشيخ محمد عبده هذا المفهوم المجرد الخالص.. فهم لا يقدمون شيئا لله، وإنما كل شيء بحساب وبدفاتر في صندوق النقد الدولي وبعين ناظرة إلى ثروات البترول وإلى الفرص والأسواق هنا وهناك.

والأخلاق النفعية.. والأخلاق التي لا تظهر إلا مع الخوف.. والأخلاق التي لا تكون إلا نفاقا وتزلفا.. ليست جميعها أخلاقا إسلامية، وإنما هي في حقيقتها لؤم وانتهازية وفطانة ووصولية وألوان من الانتفاع الدنيوي.

ولا يصح أن نصف بالأخلاق الإسلامية من لا مشروع لهم إلا النفع واغتنام الفرص واهتبال الدنيا.. فحسبهم ما أصابوا من الدنيا وليس لهم عند الله شيء. ولا بد أن نعترف أن هناك قطاعا كبيرا من المسلمين بالبطاقة ممن ليس عندهم حتى هذه الأخلاق النفعية الدنيوية ولا هذا الانضباط.. وأنهم أقرب في تخلفهم إلى قطيع الحيوان.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الاعتزال

الاسلام دين عمل ودين حركة ودين ايجابية وكفاح. ومطلوب من المسلم أن يخوض أوجال الدنيا ليصطلحها ، وأن يعالج خرابها ليعمره . ولكن السؤال : ماذا يكون الحال إذا طم الفساد وتفاقم الشر وتعاضم الكفر واستأسد الإجرام واستحال الإصلاح وغلب الخيرون على أمرهم؟

القرآن يجيب بأنه ساعتها يكون الاعتزال أمرا محمودا . يقول القرآن مخاطبا أهل الكهف حين اعتزلوا مجتمعهم الوثني:

« وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته » (١٦ - الكهف)

ويقول إبراهيم في القرآن للكفار من أهله : « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي » (٤٨ - مريم)

فماذا كان قول ربه:

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق » (٤٩ - مريم)

لقد أثابه الله على هذا الاعتزال بأن وهبه اسحق.

ويحكى القرآن عن اعتزال مريم عن الناس : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ».

فأى تكريم علوى قدسى نالته مريم على اعتزالها.

ويوصى محمد عليه الصلاة والسلام المسلم في آخر أيام الدنيا حينما يفسد الكل.. أن يلزم بيته ويغلق عليه بابه.

إن المجتمع إذا فسد وانهار فإنه لايساوى شيئا في مجموعته أمام نجاة فرد واحد.. فالفرد هو مقصود الرسالة ومراد كل النبوات.

والفرد هو الذى سوف يبعث وسوف يحاسب والنفس هى الحقيقة الخالدة ومصيرها الجحيم خلودا أو الجنة خلودا.

وإنما تمتحن النفوس بالمجتمع وتناقضاته.

والاسرة والقبيلة والجماعة والطائفة والامة والدولة وكل الأبنية الاجتماعية هى المسرح الذى تعبر فيه النفس عن خيرها وشرها وتجلى فيه مواهبها وتبوح بمكنوناتها من خلال الصراع والصدام والالتحام بالنفوس الأخرى.. والمقصود النهائى هى كل نفس على حدة.. يقول الله فى قرآنه:

« ذرني ومن خلقت وحيدا » (١١ - المدثر) .

لن ندخل على الله فى جماعة ، ولن نلقاه فى شلة .. وإنما كلهم آتية يوم القيامة فردا.

ولن يستطيع أحد أن يلقي ذنبه على الآخر أو على الأسرة أو على المجتمع أو على البيئة، فكل هذا لم يكن سوى ورقة الامتحان التى أريد بها إخراج ما يكتمه فى نفسه.. وهى أبنية أصبحت الآن هواء لا وجود لها.

ذكرت هذا وجالت بنفسى كل تلك الأفكار حينما كنت أحداث المخرج السرائد كمال الشيخ فى التليفون وأسأله: أين أنت الآن فى السينما إنى لأراك؟ فقال الرجل بنبرته الهادئة وصوته المهدب:

— لم اعد أرى نفسى فى السينما الآن، فأثرت الابتعاد والاعتزال.. لم تعد السينما عملا محترما ولم تعد الأفلام تحض على الفضيلة أو تدعو الى خير أو تقدم عبرة، حتى أفلام التسلية لم تعد تقدم تسلية بريئة.. أصبحت السينما كاراتيه وعنفا ورصاصا ودما وجنسا وإثارة، لمجرد الإثارة، وضحكا مبتذلا ونكات مكشوفة وتهريجا سفيه.. حتى أفلام المخدرات أصبحت تدعو إلى المخدرات، لأن مشاهد التلذذ والنشوة والغنى الفاحش تشيع بطول الفيلم.. ولانرى المصير المؤلم إلا فى لحظة عابرة فى النهاية فيخرج المتفرج وهو مشحون بلذة الكيف وقد نسى الباقي.. لقد تحولت السينما إلى أداة إفساد صريحة.. ليس فى مصر وحدها ولكن فى العالم كله.. وأعلى الأجور الآن تعطى لرموز العنف والتدمير أمثال شوارزنجير وإلى رموز الفحش والعهر مثل مادونا.. ولم يعد المخرج فى بلدنا يستطيع أن يسيطر على موضوعه أو يختار مادته فى جو فنى رخيص والوان من الإنتاج تبحث عن تغطية سريعة وكسب سريع أى كسب.

هناك استحالة أن يحترم الواحد منا نفسه ويستمر فى هذه الأعمال.
واحترمت الرجل واحترمت اعتزاله.

ولأظن الذين اعتزلوا السينما من ممثلات الصف الأول.. كانت عندهن أسباب أخرى.. إنما هى نفس الأسباب التى ذكرها كمال الشيخ.. الإنحدار العام فى مستوى المهنة.. ونفس الشئ فى المتفرج.. لم يعد هناك أب محترم يفكر فى أن يأخذ أولاده ويذهب إلى السينما.

ونفس الشئ فى مسارح الهزليات والتهريج والسهر للفجر.

هناك انحدار حقيقى وإسفاف وهبوط فى الجو الفنى العام خاصة فى مهنة السينما.

وإذا كان هناك فيلم من كل مائة فيلم له قيمة، فإن هذا الفيلم الواحد لا يمحو قذارات الأفلام الأخرى، ولا ينقذ المهنة من قاع المزبلة التى استقرت فيها.

والاعتزال هنا عمل ايجابى وليس عملا سلبيا لأنه انقاذ ايجابى للنفس من ضياع مؤكد.

إن القرآن حينما ذم اعتزال بعض الرهبان قال: «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون».

فهو سبحانه وتعالى لم يذم الرهبانية على إطلاقها وإنما ذم الرهبان الفاسقين الذين لم يراعوا رهبانيتهم حق رعايتها.

وقال عن الرهبانية: «ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله».

ومعنى هذا الكلام أن الاعتزال والرهبانية إن كانت ابتغاء رضوان الله فأمرها مختلف وهي مقبولة ولها أجرها المؤكد رغم أن الله لم يأمر بها.

ولم يأمر الله بالرهبانية لأنها الاستثناء حين العجز وحين غلبة الفساد وإنما القاعدة هي الكفاح والمجادة.

وأعتقد بعد أن ارتفعت الأطباق الضخمة فوق أسطح العمارات وانطلقت

الاقمار الصناعية تبتث أفلام العهر والانحلال.. أن الفساد يوشك أن ينقض

بلا موانع على الناس.. وإن هناك إغراقاً مقبلاً وغسيل مخ قادم وأننا

داخلون إلى عصر رهيب.. وأننا نقرب من هذه الأيام التي قال عنها الرسول

والتي يكون القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر ويكون أجر هذا

المؤمن كأجر خمسين من صحابة محمد عليه الصلاة والسلام.

ونسأل الله اللطيف.

القتل ثم القتل

المليشيات التي تتقاتل بالصواريخ في كابول وتدعى انها تفعل هذا من

أجل الإسلام أقول لها: انه أهون عند الله أن تهدم كعبته من أن تزهدق روح

بريء أو يقتل مؤمن واحد ظلماً.. وذلك لأن الكعبة هي البيت الرمزي للرب،

أما قلب المؤمن فهو البيت الحق.. وما يهدم من الكعبة يمكن أن يبني، أما

من يقتل فمن يستطيع أحياءه.

يقول ربنا في الحديث القدسي:

«لم تسعنى سماواتي ولا أرضي ووسعنى قلب عبدى المؤمن».

فقلب المؤمن أوسع من السماوات والأرض، بل هو المطلق اللامحدود في

سعته.. لأنه السر المفتوح على الملكوت وما وراء الطبيعة ومعدنه من معدن

النفس والروح، وهو من اللطائف التي أودعها الله فينا ولا ندري عنها شيئاً.

وحيثما تمتد يد لتمزق هذا المحراب وتهدم البنية التي أقامها الله،
وحيثما تسقط الصواريخ وتنفجر القنابل فتقتل من لا تعرفهم ومن
لا يعرفوننا بلا ذنب وبلا جريمة.. وحيثما تتمزق أجساد الأطفال.. فإن
السموات ترتعد من هول الأثم.

ثم نسمع من يقول أنهم متطرفون إسلاميون وهم لا يمتون إلى
الإسلام بسبب.

ونعجب كيف صدقوا أنفسهم وتصوروا أنهم يعملون لهدف إسلامي
وهم يقبضون مرتباتهم من المخابرات في هذه الدولة أو تلك.. وكل جماعات
بيشاور كانت تعمل بقيادة المخابرات الأمريكية، وتقول الـ C. N. N أن
حمكتيار تقاضى ألف مليون دولار من المخابرات الأمريكية أثناء حربه مع
السوفيت، وكان سلاح تلك الجماعات وتمويلها أثناء قتالها للسوفيت من
المخابرات الأمريكية.. وما زالت العلاقة مستمرة.. والجديد كان دخول
دول عربية لتساند هذا وذاك لأهداف ومصالح يعلمها العليم.

وأشعر بالأسى ..

مادخل الإسلام بكل هذا؟ وكيف نسمح للغرب المتربص بأن يجرد قدم
الإسلام إلى هذه المباءة ليجعل منها ذريعة ليطارد الإسلام والمسلمين في كل
مكان؟

وكيف نرضى أن نطعن أنفسنا بأنفسنا من أجل حفنة دولارات ومن
أجل البقاء في الكراسي أي كراسي.. بينما الأرض كلها تسحب من تحتنا
جميعا.. ونسعى إلى حتوفنا دون أن ندري والموت يشاركنا اللقمة كل يوم.
فهل أدرك الذين يصنعون هذا البلاء أنهم يصنعون مصيرهم ضمن
ما يصنعون.

هل أدركوا أنهم يلهثون جريا إلى الجحيم. وكلما أطلقوا صاروخا
ازدادت شهيتهم إلى هذا اللقاء واشتعل شوقهم فأطلقوا صاروخا آخر..
وما اشتاقت نفوسهم للجحيم إلا لأنها بضعة منه.

وكل شيء يحن لأصله والعياذ بالله.

ولهذا يتحدث عنهم ربهم بأنهم أصحاب الجحيم وأهلها الذين هم أهلها.
هؤلاء الناس الذين تسليتهم القتل وبضاعتهم القتل وتجارتهم القتل.